في الدين

آيات من سورة فاطر

للأستاذ العلامة طنطاوي جوهري

قال تعالى : « والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير * ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير * وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب * والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير * إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور * » .

(من الكتاب) أى القرآن (هو الحق مصدقاً) حال مؤكدة (لما بين يديه) من الكتب السماوية (إن الله بعباده لخبير بصير) عالم بالبواطن والظواهر ؛ فلو كانت أحوالك الروحية يا محمد لا تتفق مع هذا الكتاب لم ينزل عليك (ثم أورثنا الكتاب) يقول الله أوحينا اليك القرآن ثم أورثناه أى حكمنا بتوريثه (الذين اصطفينا من عبادنا) يعنى علماء هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم ، والأمة بأسرها فهم خير الأمم (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير فى العمل به أو بالكفر ، أو من رجحت سيئاته على حسناته ، أو التالى للقرآن الذى لم يعمل به ؛ أو أصحاب الكبائر أو الجهال (ومنهم مقتصد) يعمل فى أغلب الأوقات أو يكون مرائيا بالعمل ، أو من استوت حسناته وسيئاته ، أو التالى للقرآن العالم به وأصحاب الصغائر (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) بضم التعليم والارشاد إلى العمل . أو المؤمن المخلص . أو من رجحت حسناته على سيئاته . أو من باطنه خير من ظاهره . أو التالى للقرآن العالم به العامل بما فيه ؛ أو الذى لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة أو العالم ـ واعلم أن هذه المعانى

لا تنافي بينها . فلكل خصلة من الخصال فيها سابقون ومقتصدون ومقصرون . فالسابقون يدخلون الجنة بغير حساب ، والمقتصدون يحاسبون حساباً يسيراً . وأما الذين ظلموا فهم يحبسون في الحشر ثم يرحمون . ثم أشار إلى إيراثهم الكتاب واصطفائهم فقال (ذلك هو الفضل الكبير » جنات عدن) مبتدأ (يدخلونها) خبر والضمير للذين (يحلون فيها) خبر ثان (من أساور) جمع أسورة أي بعض أساور مصنوعة (من ذهب) وقوله (ولؤلؤا) عطف على محل من أساور أي يحلون أساور ولؤلؤا (ولباسهم فيها حرير » وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) من خوف العاقبة ومن أجل المعاش والآفات والوساوس الشيطانية (إن ربنا لغفور) للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذي أحلنا دار المقامة) دار الإقامة (من فضله) من إنعامه وتفضله (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) كلال ، إذ لا تكليف فيها وقد نفى ما يتبع النصب من الكلال بعد نفيه للمبالغة (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) لا يحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) فيستريحوا (ولا يخفف عنهم من عذابها) لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء (يجزى كل كفور) مبالغ في الكفر أو كفران النعم (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون قائلين (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) فهم متحسرون على ما أضاعوا أيام حياتهم فأجابهم الله قائلا (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) يوبخهم الله سبحانه على أعمار تنقضي بلا تفكر ولا اعتبار كأنه يقول : أأمهلناكم ولم نعمركم تعميراً يتذكر فيه من تذكر وهو يتناول كل عمر وإن قصر إلا أن التوبيخ في التطاول أعظم . فإذا قيل هو ثماني عشرة سنة أو أربعون سنة أو ستون سنة فذلك ليس حصراً (وجاءكم النذير) الرسول عليه الصلاة والسلام أو الشيب يقول الله عمرناكم وجاءكم النذير (فذوقوا) العذاب (فما للظالمين من نصير) يدفع العذاب عنهم (إن الله عالم غيب السموات والأرض) لا يخفى عليه خافية فيهما ، ثم علله بقوله (إنه عليم بذات الصدور) .

تذكرة في قوله تعالى : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » .

ها أنا ذا أيها المسلمون قبل أن أفارق هذا العالم أكتب إليكم تذكرتي وتذري : أكثر هذا الجيل لا يعيش فوق الستين وقليل منهم من يعيش إلى السبعين ، والنادر من يجاوز ذلك إلى المائة ، والشاذ جداً يجاوزها .

نظرت في هذا العمر الإنساني نظرة غير نظرة الأطباء :

الأطباء في عصرنا يقولون « إن الإنسان يستحق أن يعيش (٢٠٠) سنة ولكنه بجهله وشرهه وعدم انتظام شهواته قطع حياته فمات قبل ذلك » واستدلوا على ذلك بسكان البادية الذين يعيشون إلى (١٥٠) وأكثر وأقل بلا مرض ولا عطب وهم أقوياء الأبدان أهل صحة

وفرة وجمال ، ويقولون . « إن الحيوان يعيش ثمانية أمثال نموه والانسان ينمو إلى (٢٥) سنة وعدده بضربها فى (٨) تساوى (٢٠٠) ، فاذا حافظ الانسان على صحته واستغنى عن العقاقير الطبية واكتفى بالمآكل البسيطة وتعرض للشمس وأكثر من الرياضات الجسمية وعاش عيشة خلوية فإنه يعيش إلى المائتين كما عاش كل حيوان ضعف مدة نموه ثمان مرات .

هذا حكم الأطباء وقد ذكرته فى ثنايا هذا التفسير ، وقد أجمعوا على أن ترك الشهوات والتنعم والاكتفاء بأبسط الأطعمة خير ما ينفع فى ذلك ، ويستحسنون أكل الفواكه فإن أمكن الاقتصار عليها فبها ونعمت ، وإلا استعان الانسان بالحبوب والخضر وامتنع عن أكل التوابل ولا يشرب قهوة ولا خمراً ولا شاهيا (وهو الشاى المعروف) ولا يدخن التبغ . ويستحسنون أن يستغنى بالفواكه عن السكر ويقلل من الملح ويأكل الخبز بلا نخل .

اقرأ هذا فى سورة الشعراء عند آية « وإذا مرضت فهو يشفين » وفى طه عند ذكر آدم فى آخر السورة ، وفى أول سورة الحجر عند قصة آدم ، وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى « ولا تسرفوا » وفى سورة البقرة آية « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » فستجد فى بعضها ماقرره ابن خلدون فى مقدمته من أن الذين اقتصروا على طعام الذرة والزيت لم يقربهم الطاعون ، أما الذين أكلوا أنواع اللحوم والادهان ونوعوا الألوان فإن الطاعون يبيدهم ولايبقى منهم إلا قليلا ، وقال : إن الأولين يتصفون بالصحة والذكاء والجمال والعلم والعبادة وحسن الخلق وصفاء العيش والشجاعة ، وأن الآخرين يتصفون بالمرض والبلادة وقبح الصورة والجهل وترك العبادة وسوء الخلق وكدر العيش والجبن .

هذا كلام الأطباء فارجع إليه وإنما ذكرته لاذكرك بعلم الطب ، ولترجع فتدرس ذلك قياما بحق جسمك ورقيا لأمتك وإسعادا لك فى حياتك إذا كنت مستعدا لها ، ومع هذا كله لست الآن فى مقام كلام الأطباء ، بل أنا فى مقام آخر ، وهو أنى أقرأ آية « أولم نعمر مايتذكر فيه من تذكر » فأريد أن أبين لك مايخالج قلبى فى هذه الحياة وما أعرفه من ندورها تذكرة لك وتنشيطا للعاملين وذكرى لقوم يعلمون .

هذه هى تذكرتى فى الحياة ، ولقد نظرت فى حياة الناس على الأرض فوجدت أكثر الآجال مناسبة لهذا العالم الأرضى فليقل الأطباء ماشاءوا ، وليقولوا إن الناس قد أساؤوا فى صحتهم وأكثروا ألوان الطعام والشراب والتفانى فى المهلكات واللذات اللاتى ينغصن لذة الحياة ويحطن الانسان بالأسقام والعلل وتنغيص الحياة وقصر العمر ، فليقولوا ذلك ولكن هذا الانسان على مابه من عوج رأيناه يتعلم فى الأمم الراقية وينتهى تعليمه فيما بين العشرين والثلاثين غالبا فنجده حاز درجات التفوق فى العلم والفنون وأخذ بعد ذلك يفيض من علمه على أمته (وبعبارة أخرى) رأينا مدة النمو التى ذكروها وهى (٢٥) سنة هى المدة التى

ينمو فيها عامه فكأن نمو الجسد ونمو العلم فرسا رهان ، مما يبتدئان ، ومعا ينتهيان غالبا ، ثم يعقب تلك المدة أننا نراه يأخذ فى الأعمال ويؤلف الكتب وينشر العلوم بين الناس وليس لنا فى الحياة إلا علم أولا وعمل ثانيا ، فالعلم حصلناه فى سن النمو ، والعمل متصل به ، إذن هذا العمر مع قصره قد أدى الوظيفتين، وظيفة العلم فى سن النمو ، ووظيفة العمل فى السن التى بعدها ، أما قولهم إنه مستعد أن يعيش فوق ذلك فربما يكون بعض ماقالوه حينما يرتقى الانسان عن هذه الحال ويعرف حقا أن سعادة الحياة ليست باللذات الحقيرة ، بل بالصحة والعافية والعلم والحكمة والمساعدة العامة : تلك اللذات التى لايعرفها إلا من نالها ، وهيهات أن يقدر على وصفها لغيره من الناس الذين لم ينالوها .

هذه تذكرتى فى أمر الحياة إجمالا ، أما تذكرتى فيما أنذر به الانسان فى هذه الحياة فهأنا ذا أحدثك عنه فإنه أهم مما قبله فأقول :

إنى وجدت هذه الحياة ترجع إلى أربعة أشياء : ألم،وأمل،وعمل ، وحب وغرام ، فالثلاثة الأولى مقدمات والرابعة هى نتيجة الحياة .

أما الألم فقد ذكرته فى غير ما موضع ، ولكنى ألخصه لك تلخيصا فأقول :

لا ألم فى هذا الوجود إلا لإسعادنا ؛ الحياة كالنهر ولا سبيل لحفظ الماء إلا بالجسور ، كذا هذه الحياة لا دوام لها ولا بقاء إلا بالآلام ، فألم الجوع به طلبنا الطعام فدامت الحياة ومثله ألم العطش فطلبنا الرى ؛ وألم الشبق فكانت الذرية ، وألم الفقر فطلبنا المال ، وألم الذلة فطلبنا العزة وألم الخمول فطلبنا الظهور والمجد ، وألم الذم بوصفنا بالبخل فاتصفنا بالكرم ، وألم الذم بالجور والجبن فكسبنا الشجاعة ، وألم المرض فتداوينا فوجدت الصحة .

آلامنا كلها خلقت لإسعادنا ولا شقوة فى هذا الوجود إلا لنتيجة نافعة ، وإذا رضينا أن نقطع عضوا من أعضائنا خيفة أن يصاب بقية الجسم بما أصابه ، واستعملنا الحمية فى أمراضنا طلبا للصحة ، فإن النتيجة لذلك كله منافعنا . فإذا كانت هذه أفعالنا على قصور علمنا فهكذا نتذكر أن كوارث هذه الدنيا على هذا النمط من قحط ، وزلازل ، وإهلاك بلاد ، وإغراق سفن ، فهذه كلها أشبه بقطع سلعة من الجسم وإن كنا ندرك حكمة قطعها من جسمنا ، ولكنا نعجز عن إدراك الحكمة فى قطعها من الجسم العام كله بل علماء الاقتصاد أدركوا أن الزلازل بها تظهر تربة جديدة فيها خصب لانظير له فى التربة كما فى أول (سورة سبأ) عند آية « يعلم مايلج فى الأرض » .

« يتبع » طنطاوى جوهرى

إعجاز القــــرآن

الوجه الحق للأعجاز

للأستاذ السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم العليا

إن الوجه الحق الذى نرتضيه دليلا على الأعجاز هو الوجه الثالث من الوجوه التى ذكرها الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » وهو أنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه فى البلاغه إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، وإنما ارتضينا هذا الوجه دون غيره لأنه الثابت لجميع القرآن فى كل قدر تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة والآيات اليسيرة ثبوتا ذاتيا له ، دون نظر إلى ما عسى أن يكون فيه من تنبؤ أو قصص ، مما صلح على ما مر آنفا لأن يكون دليلا على الأعجاز ، ولكن من غير الناحية التى نريد ، إذ الأعجاز الذى نريد هو إعجاز الأسلوب الذى قد جاء فى ألفاظه بديع النظم عجيب التأليف ، وفى معناه متناهيا فى الأبانة والأعراب ، فجمع بذلك بين طرفى الفصاحة والبلاغة جمعا أنتج البيان الرائع الذى أتى فى كل غرض قصد إليه بما ليس فى مقدور إنسان من بيان ، فأتى للبيان فى الكلام بعد اشتماله على ما يجب لتحقيق الفصاحة والبلاغة درجات متفاوتة ، تفاوت مراتب المروءة بعد الواجب ، لا تزال يعلو بعضها بعضا كما تتعالى طبقات الأجواء ، حتى يكون فرق ما بين الدنيا والعليا ، كفرق ما بين الأرض والسماء ، وفى هذا الميدان الفسيح يتبارى الفصحاء والبلغاء فترى فيهم المسف الدانى والمحلق الرفيع ، وما منهم من ترى فى كلامه عيبا يسلبه صفة الفصيح البليغ ، ألا ترى إلى الشاعرين يكون كلاهما مبرزا يرى بشعره فصيحا بليغا ، فإذا ما وازنت بينهما فى قصيدتين ، لم تظفر بعيب فيهما ؛ ولكنك مع هذا تضع قصيدة أحدهما فى منزلة غير التى تضع فيها الأخرى ، صعودا أو هبوطا لما تحسه ، وقد لا تعرف كيف تعلله من تفاوت درجة البيان ، واختلاف قوة الرمى إلى المقصود ، وبقدر ما يكون للشاعرين أو الخطيبين أو الكاتبين من قدرة قوية على تملك زمام الألفاظ ، وتصرف واسع فى المعانى يبعد فى بيانه عن أقرانه الآخرين ، فالقرآن الكريم أتى فى هذين البابين للألفاظ والمعانى فى كل غرض رمى إليه بالعجب العجاب الذى عقدت دونه الألسنة ، وحارت أمامه العقول فلم يتمكن أحد فى مجاراته بله الأقدام على تلك المجاراة ، فجاء هذا دليلا على الأعجاز ، أى

دليل ، وإلا فمن فى مقدوره أن يكون له كلام بهذا القدر الباسق من الطول ، ثم هو يخلو فى ألفاظه ومعانيه على اختلاف أغراضه ومراميه من كل مايعاب ، ويشتمل بعد هذا على آيات من الحسن الفائق بينات ، وصورات من الجمال الرائع باهرات ، قال عز من قائل « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » نعم ولو كان من عند غير الله لوجدوا هذا الاختلاف ، فأن قول البشر بالغا مابلغ فى قوة البيان ، لابد أن تجد به السقطات والزلات فى الألفاظ والمعانى على السواء ، وإن عز عليك ذلك فى غرض قد تهيأ له المتكلم وطبع عليه حتى صار فيه سبق الخاطر وفى المتناول ، كالوصف لدى امرىء القيس ، والمدح عند زهير ، والاعتذار فى شعر النابغة ، وبعيد هذا أن يكون ، فانقده فى أغراض له أخر تجده بينا موفوراً.

هذه هى ناحية الاعجاز ومنها عينها استحال على رسول الله نفسه ، أن يكون من كلامه القرآن لأنه بشر وما كان لبشر أن يقول هذا ، على أن له صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون رسولا كلاما أوله بعد الرسالة كلاما وكلا الكلامين شديد الشبه بأخيه بيناهما مما يبعدان عما لم ينسبه إلى نفسه ونسبه إلى الله سبحانه وهو القرآن بعد كلام الرب عنه فى بلغاء قريش وسائر عدنان وفى قحطان ، وإذا كان من المحال عقلا أن يكون للرجل الواحد فى كلامه لونان مختلفان وأسلوبان متباينان ، فكيف يتفق هذا لمحمد لو أراده على فرض المستحيل ، وأسلوب المتكلم قطعة من نفسه ، وماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، ثم إذا كان هذا المعجز باديا فى الحسيات كما تراه فى عدم تمكن الكاتب مهما حاول إخفاء خطه فى التوقيعات ، فهو فى باب المعنويات أبدى ، و بنسبته إلى الاستحالة أولى ، ولعل قريشا لهذا كانت تصف رسول الله بالكهانة والسحر ، حين كانت تقول إن هذا قوله لاعتقادها أنه يستحيل على بشر عادى لم يعتمد على قوة خفية تؤيده فتجعله يقول ماليس فى مقدورها ولا فى مقدور غيرها أن يقول ، هذا وإن لنا بعد كل ماتقدم أن نلمس شيئاً من آيات الفصاحة والبلاغة المعجزة فى القرآن ، حتى نحس بعض الاحساس بالناحية التى قلنا إنها الوجه الحق للاعجاز ، فلا يكون كل إعاننا به عن تقليد شأن من ليس لهم بعلوم العربية حذق ولا بفنون بيانها افتنان ، راجين من الله فيما نحاول التوفيق إذ المطلب عزيز المنال ، يكاد يكون خارجا عن مكنته التصوير قال السكاكى « اعلم أن شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه »

ولما كان هذا الادراك لايكون إلا بالذوق ، والذوق إنما يتهيأ لذوى الفطر السليمة الذين راضوا أنفسهم بالخطب والرسائل والشعر واشتغلوا بعلوم البلاغة من بيان ومعان

وبديع حتى صارت لهم بذلك ملكة ودراية يمكن أن يعتمد عليها في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض ؛ وأني سأتخذ هذه العلوم الثلاثة نبراسا أهتدي به إلى تصوير ما أريد وعلى الله الاعتماد .

القرآن معجز بفصاحته وبلاغته

كان في العرب ذو الفصاحة والبلاغة وفي كلامهم الفصيح والبليغ ، والفصاحة تتحقق للمتكلم بقدرته عن ملكة على إيراد كلامه معبرا عن المعنى الواحد بتعابير مختلفة في مراتب الوضوح ، دون تعرض المعنى في أحدها لخفاء ، وإنما يجيء اختلاف التعابير في مراتب الوضوح عن طريقين : طريق الحقيقة المبالغ فيها بالتشبيه ، وطريق الخروج عنها خروجا يمكن من إرادتها ، ولكن لا تراد وهذه هي الكناية أولا يمكن وإن حوول ذلك ، وهذا هو المجاز فهذه الثلاثة هي مباحث علم البيان دون الحقيقة المجردة ، حيث لا تفاضل فيها في مراتب الوضوح ، غير أن الفصاحة لا تبحث عما تقدم في أي كلام إلا إذا خلصت مفرداته قبل ذلك من تنافر الحروف وغرابة المعنى ، ومخالفة القياس وتراكيبه من تنافر الكلمات ، وضعف التأليف ، وتعقيد الألفاظ ؛ لا يكون للبيان بعد ذلك سوى تخليصه من التعقيد المعنوي تحقيقا للوضوح الذي تبحث في مراتبه تلك الأشياء الثلاثة من تشبيه وكناية ومجاز ؛ ومن ثم كان لا بد لمن يريد مزاولة البيان أن يكون صحيح الذوق ، ليتقي التنافر في الحروف والكلمات ، على علم بمتن اللغة ليكون صادق الحكم على الغريب عالما بالصرف والنحو يعرف مخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد من جهة الألفاظ ؛ إذ كل هذه وسائل للبيان وإن لم تك من علم البيان ، أما البلاغة فتتحقق للمتكلم بقدرته عن ملكة أيضا على جعل كلامه الفصيح مطابق المعنى لمقتضيات الأحوال خبرا كان أو إنشاء بتحقيق ما تستلزمه تلك المطابقة فيه : كأن يوجز أو يطنب في غير المساواة كل في الموضع الذي يقتضيه ، وكأن يفصل أو يصل ويقصر ، أو يطلق ويؤكد أو يرسل ، إلى غير ذلك من مباحث علم المعاني الذي يحقق البلاغة في الكلام ، بعد أن يحقق الفصاحة فيه البيان ، وليس لعلم البديع معهما سوى وجوه تحسين الكلام ولكن سميت الثلاثة بعلوم البلاغة على سبيل الاصطلاح .

ذلك ما كانت تتحقق به في مجموع كلام العرب لا جميعه ، الفصاحة والبلاغة ووجوه التحسين ، وقد جاء كله في جميع القرآن بحال أوضح ظهورا وأبعد مراما وأكثر مقدارا بعيدا عن التكلف والاستكراه ، سهل المأخذ عذب الإيضاح ، فبذ العرب فيه من جميع النواحي ، ثم بذهم في ناحية أخرى فريدة ليس لهم فيها شيء ، هي ناحية تفصيله بفواصل الآي ، وسنتكلم عليها أولا لأنها أظهر شيء في بدع الأساليب ، ثم نعود إلى فضل القرآن فيما تقدمها مما جاء مشاركا للعرب فيه بقدر ما يسمح المقام .